علم التاريخ (تعريفه، مكانته، مجال البحث فيه)

1. تعريف التاريخ (لغة وإصطلاحا/ تعريفات معاصرة):

قال السّخاوي في كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ" أنّ المدلول اللغوي لكلمة "تاريخ" تعني الإعلام بالوقت، وهناك أقوال مختلفة فيما يتعلق بأصلها، بين قائل بأصلها العربي أو الفارسي أو العبري. وقد مرّت كلمة "تاريخ" عند العرب بخمسة معانٍ على الأقلّ هي:

- سَيْر الزّمن والأحداث أي التّطوّر التّاريخي، وتُقابله عبارة (The History of)، مثال: التاّريخ الإسلامي، التاريخ المصري القديم، تاريخ إسبانيا...
- تحديد زمن الحادث التاريخي أو الواقعة باليوم والشهر والسنة (The date).
- علم التاريخ والتعريف به، وكتب التاريخ وما فيها، وهو ما يقابل كلمة (The history) المفردة.
- عملية التدوين التاريخي أو التّأريخ (بإثبات الهمزة) ووصف التطور وتحليله وهي تقابل كلمة (Historiography).
- تاريخ الرجال أو ما يقابلها (The bigraphy).

وتكمن الوظيفة الأساسية للتاريخ في وصف النّشاط الإنساني على مرّ الزّمن وتحليله، وبذلك فإنّ مهمّة أو وظيفة المؤرّخ تتلخّص في النقاط التالية:

- أن يُعيِّن ما حدث.

- أن يتعرّف على الوقائع متسلسلة.
- أن يُحلّل الرّوابط بين هذه الوقائع.
- أن يكشف كيف ولماذا حدثت على نحو ما حدثت.

والتّاريخ من خلال هذه الأدوار لا يعني الحوادث الماضية في حدّ ذاتها، وإنّما هو تفسير هذه الحوادث، والوقوف على روابطها مع غيرها على حسب الزمن والبيئة التي وُجِدت فيها.

ولفهم مكانة التّاريخ وأهمّيته أكثر، يُمكننا القول أنّه إذا كانت قراءة التّاريخ تُضيف لِقارئها عُمرا ثانيا متمثّلا في عمر الشّعوب والقادة والأبطال الذين قرأنا تاريخهم وتعلّمنا من خبراتهم، فإنّ الوعي بالتّاريخ وفهمه يُكسب القارئ عُمرا ثالثا وهو عمر الأجيال التي لم تأت بعد، وبذلك أمكننا القول أنّ التاريخ في حقيقته ليس علم الماضي بل هو علم الحاضر والمُستقبل. وبذلك فإنّ غاية علم التاريخ هي المعرفة بحوادث البشر في الزمن الماضي، وبأزمانها وأماكن وقوعها وأسبابها ونتائجها والاعتبار بها والتعلم منها.

تحديد مفهوم التاريخ (تعاريفات معاصرة):

1. التاريخ هو معرفة ماضي البشرية منذ نشأتها الأولى وحتّى الوقت الحاضر، فهو علم البشرية بالدرجة الأولى، وهو بذلك يُحيط إحاطة شاملة بحياة الإنسان في كلّ أبعادها الزمنية بما في ذلك الحاضر والمستقبل، وهذا ما يجعله عاملا أساسيا في الوعي بوجودنا حسب مقتضياتنا وحاجاتنا وإمكانياتنا.

2. التاريخ هو الصورة الفكرية للحضارة، ومؤشّر نشاط الفكر الإنساني في ماضيه، منذ أن بدأ يُعبّر عن وجوده بما حفره على الحجارة بالكهوف حتى ارتقى إلى عالم الإليكترونيات والحاسوب، فهو يهدف إلى إعادة تمثيل الحياة البشرية كما هي، وإعادة رسم مظاهر النشاط الفكري بتطوراته، وتقدمه وتتبع مراحل هذا التطور وتفاعلها. وبذلك كان أصدق مرآة تعكس حياة الأفراد، والجماعات، والشعوب، والأمم، وأحسن دليل لها على تجاربها الماضية، وتطلعاتها نحو المستقبل بحيث يشكل اللوحة الشاملة للمجتمع الإنساني التي تمكننا من الاستفادة من تجارب الإنسان في الماضي.

3. التاريخ هو دراسة جهود الإنسان في الماضي في مظاهرها المختلفة، إذ يُسجّل الماضي الذي يُظهر الصراع بين البشر والتفاعل بين الفرد والأحداث في بيئة ما، ويُعدّد التغيّرات التي نشأت عنها، وهذا ما يجعل التاريخ علما يُحيط إحاطة شاملة بحياة الإنسان في كل أبعادها، فهو يعكس استمرار الوجود الإنساني عبر الزمن بمنجزاته السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، وما تركته هذه المنجزات من تأثيرات في تطور الحضارة في الماضي، وما يترتب عنها في الحاضر، وما ينبئ بنتائجها على ضوء ما سوف يقع في المستقبل.

2. مكانة التاريخ: (هل التاريخ علم أم فن؟)

تبلور مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي نقاش محتدم بين رجال العلم والتاريخ والأدب حول طبيعة علم التاريخ ومكانته إلى ثلاثة آراء:

رأي أوّل قال به بعض العلماء أمثال "وليام استانلي جيقونز": بأنّ التاريخ لا يمكن أن يكون علما، لأنّه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لأدوات المنهج التجريبي كالمعاينة، والمشاهدة، والفحص والاختبار والتجربة، (يعني لا يُمكننا استحضار الحادثة التاريخية وإدخالها للمخبر ودراستها كدراسة عيّنات المّادة كما يفعل علماء الكيمياء مثلا). وممّا يُبعد التاريخ عن صفة العلم في نظرهم قيام عنصر المصادفة، ووجود عنصر الشخصية الإنسانية، وحرية الإرادة، ممّا يهدم الجهود الرّامية إلى إقامة التّاريخ على أسس علمية، على نحو ما يفعل علماء الطّبيعة أو الكيمياء مثلا.

ورأي ثاني قال به بعض رجال الأدب أنّه سواء أكان التاريخ علما أم لم يكن فهو فنّ من الفنون، بحيث أنّ العلم لا يُمكنه أن يُعطينا عن الماضي سوى العظام اليابسة، وأنّه لا بدّ من الاستعانة بالخيال لكي تُبعث الحياة في تلك العظام، ثمّ هي بحاجة كذلك إلى براعة الكاتب حتّى تبرز في الثّوب اللاّئق بها. فمثلا لا يستطيع العلم الطبيعي أن يُفسّر لنا حريقا حدث في الماضي إلا على أساس قوانين الإشتعال، ولابدّ من تدخّل المؤرّخ لكي يشرح لنا الأسباب والظّروف السياسية والعسكرية التّي أدّت إلى ذلك الحريق، ولابدّ من قلم المؤرخ أو قلم الأديب لكي يصف لنا الحريق وما تركه من آثار مادّية ونفسية.

أمّا **الرّأي الثالث** فيؤكّد أصحابه على أنّ التّاريخ علم اعتمادا على خصائص المادّة التاريخية وطرق البحث المرتبطة بها، حتّى وإن اختلف في منهجه عن مناهج العلوم الطبيعية والتجريبية، فهو بدون شكّ يُحاول الوصول إلى حقائق ثابتة ومؤكّدة نسبيا حسب توفّر المادة وإخضاعها للنقد والتّمحيص، ولعلّ أقرب العُلوم الطبيعية شَبَهًا به

هو علم الجيولوجيا (علم الأرض)، فكلا من المؤرخ والجيولوجي يدرس آثار الماضي ومخلّفاته لكي يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضي والحاضر على السّواء، ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجي من حيث اضطرار الأوّل إلى أن يدرس ويُفسّر العامل البشري الإرادي الانفعالي حتى يقترب قدر المستطاع من الحقائق التاريخية.